البناء البلاغي في سورة الكوثر (دراسة تحليلة)

Rhetorical Structure in Surat Al-Kawthar (An Analytical Study)

DOI: 10.5281/zenodo.10473841

*Mr. Shams Ud Din
** Dr. Habib Ullah Khan
***Dr. Sumaira Saghir Ahmad

Abstract:

The purpose of this study is to analyze Surat Al-Kawthar rhetorically and prove its miraculous importance.

The researcher started the article by giving an introduction to this noble Surah, while after that dealt with the similarities in it, and then mentioned the general meaning of the Holy Surah. The introduction was followed by the meanings of the difficult words in the selected chapter (Surah), the reason for its revelation, and next mentioned the benefits that the Holy Surah included. As the introduction completed, the study dealt with rhetorical styles present in the Surah in detail. Amongst the rhetorical style that the surah contains: Inclusion and omission, style of precision, style of wisdom, consideration, use of an apparent noun in place of the pronoun, metaphor, and scholastic or theological doctrine and other rhetorical styles as well.

Eventually, the researcher has given the results at the end of this study.

Keywords: Al-Kawthar, pronoun, metaphor, and scholastic or theological

التعريف بالسورة:

السورة مكية، آياتها ثلاث بالإجماع، وكلماتها عشر، وحروفها ثنتان وأربعون، فواصل آياتها على الراء، سُميت بالكوثر؛ لذكره فيها، معظم مقصود السورة: بيان المنة على سيد المرسلين، وأمره بالصلاة والقربان، وإخباره بإهلاك أعداءه أهل الخيبة والخذلان.

. . . . . .

*Ph.D. Researcher Faculty of Arabic International Islamic University Islamabad
**Assistant Professor Faculty of Arabic International Islamic University Islamabad
***Assistant Professor Faculty of Arabic International Islamic University Islamabad

المتشابهات:

قوله –تعالى–: **إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ**[1] وبعده: "إنا شانئك هو الأبتر" قُيد الخبرين بإنّ، والخبر إذا قُيد بإنّ قارب القسم.

تفسير السورة:

إنا أعطيناك –يا أيها النبي– الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك نهر الكوثر في الجنة الذي حافتاه اللؤلؤ المجوّف، وطينه المسك.

فاخلص لربك صلاتك كلها، واذبح ذبيحتك له وعلى اسمه وحده.

إن مبغضك ومبغض ما جئت به من الهدى والنور، هو المنقطع أثره، المقطوع من كل خير.

المقدمة:

لا يخفى أن القرآن معجزة النبي -صلى الله عليه وسلم- الباقية إلى يوم القيامة، وأن الله تحدى به أهل الفصاحة والبيان، فحول العرب الأقحاح، فتحداهم أن يأتوا بمثله ثم بعشر سور، ثم بسورة مثله، فما استطاعوا له، ولما علموا عجزهم وأصروا على كفرهم اتهموا النبي بالسحر والجنون**!**

واليوم يأتي أحدهم فيدعي المطاعن في القرآن، ويكأنه تبين له ما لم يتبين لأفذاذ اللغة قبله، ولإن سألته مسألة في الآجرومية ربما لم يجد جوابا**.**

وروى الخطابي قال: سمعت ابن أبي هريرة يحكي عن أبي العباس بن سريج قال: سأل رجل بعض العلماء عن قول الله عز وجل: **لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ**[2] فأخبر أنه لا يقسم ثم أقسم به في قوله: **وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ * لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ**[3] فقال له ابن سريج: أي الأمرين أحب إليك؛ أجيبك ثم أقطعك، أو أقطعك ثم أجيبك؟ قال: لا بل اقطعني ثم أجبني. فقال له: اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بحضرة رجال وبين ظهراني قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزًا، وعليه مطعنًا فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه، ولكن القوم علموا وجهلت، فلم ينكروا ما أنكرت، ثم قال له: إن العرب قد تُدخل "لا" في أثناء كلامها وتلغي معناها، كقول الشاعر: في بئر لا حور سرى وما شعر. يريد في بئر حور سرى وما شعر[4].

فكانت هذه المقالة المقتصدة في العبارة، لتفتح للقارئ نافذة على بعض بلاغة القرآن فلا يغتر بكل ناعق، ولأن الوقوف على بلاغة القرآن هو وقوف على موطن الإعجاز فيه، ولا يخفى ما في هذا من

رسوخ الإيمان في القلوب، وهو ما نحتاجه في قلوبنا وقلوب أبنائنا اليوم في ظل انتشار الشبهات وتسلط الشهوات.

وسنتناول في هذه المقالة أقصر سور القرآن آيًا وكلمات، ألا وهي سورة الكوثر، فهي على قلة ألفاظها وقصر جملها كاسمها كوثر في المعاني، كوثر في البلاغة.

أولا :في سبب نزولها:

قيل نزلت في العاص بن وائل وقيل في غيره[5]، ذلك أنهم وصفوا النبي –ﷺ– بالأبتر حين مات ولده عبد الله –أي أنه إذا مات انقطع ذكره– فأنزل الله هذه السورة.[6]

ثانيا :في معاني مفرداتها:

الكوثر: "فَوْعَل من الكثرة وهو المفرط في الكثرة، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر[7]"، وفسر الكوثر في السورة بتفاسير عديدة لعل أعمها وأقربها أنه الخير الكثير كما روي عن ابن عباس[8].

النحر: طريقة الذبح الخاصة بالإبل، "ونحر البعير ينحَره نحراً: طعنه في منحَرِه حيث يبدو الحلقوم من أعلى الصدر".[9]

الشانئ: المبغض، قال ابن فارس: الشِّينُ وَالنُّونُ وَالْهَمْزَةُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْبُغْضَةِ وَالتَّجَنُّبِ لِلشَّيْءِ.[10]

الأبتر: "البَتْرُ: قَطعُ الذَّنَب ونحوه إذا استأصَلْتَه[11] "ثم" قيل لمن لا عَقِبَ له أبتر، على الاستعارة التصريحية، حيث شبه الولد والأثر الباقي بالذنب".[12]

ثالثا: قد اشتملت هذه السورة الكريمة على فوائد غزيرة :

1- ذكر فخر الدين الرازي –رحمه الله– في تفسيره أن هذه السورة بمثابة المقابلة للسورة التي قبلها سورة الماعون، لأن سورة الماعون وصف الله –تعالى– فيها المنافق بأربعة أمور: البخل وترك الصلاة والرياء ومنع الزكاة، فذكر الله –تعالى– في هذه السورة في مقابلة البخل **إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ**[13] أي: الخير الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة "فصل" أي فدم على الصلاة، وفي مقابلة الرياء "لربك" أي لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون "وانحر" وأراد به سبحانه التصدق بلحوم الأضاحي.[14]

2- أن الكفار لما شتموا الرسول –صلى الله عليه وسلم–، فأجاب الله –تعالى– عنه من غير واسطة، فقال: **إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ**[15]، وهكذا سنة الأحباب، فإن الحبيب إذا سمع من يشتم حبيبه تولى جوابه.[16]

فههنا تولى الحق –سبحانه– جوابهم.

وذُكر مثل ذلك في مواضع حين قالوا: **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ * أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ** [17]. **فقال سبحانه: بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ**[18].

وحين قالوا هو مجنون، أقسم ثلاثاً ثم قال: "ما أنت بنعمة ربك بمجنون".

ولما قالوا: لست مرسلا، أجاب –سبحانه وتعالى–: **يسٓ * وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ**. وأمثال ذلك من مواضع التنزيل كثيرة، فما أجل هذه الكرامة.

3- في هذه السورة دلالات على صدق نبينا –صلى الله عليه وسلم– وصحة نبوته:

أ- أنه قال: **إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ**[19] فانظر كيف انتشر دينه وعلا أمره، ووكثرت ذريته، حتى صار نسبه أكثر من كل نسب، وكثر أتباعه، وزال الفقر حتى نحر مائة بَدَنة في يوم واحد، ولم يكن شيءٌ من ذلك في تلك الحال.

ب- أن جميع فصحاء العرب والعجم قد عجزوا عن الإتيان بمثل هذه السورة على وجازة ألفاظها، مع تحديه إياهم بذلك وحرصهم على بطلان أمره، منذ بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى يومنا هذا، وهذا غاية الإعجاز.

ج- أنه –سبحانه وتعالى– وعده بالنصر على أعدائه، وأخبره بسقوط أمرهم وانقطاع دينهم أو عقبهم، فكان المخبر على ما أُخبر به.

د- أن هذه السورة جارية مجرى النكتة المختصرة القوية الوافية بإثبات جميع المقاصد، فكانت صغيرة في الصورة وكبيرة في المعنى. ثم لها خاصية ليس لغيرها، وهي أنها ثلاث آيات، وكل واحدة منها معجزة، فهي بكل واحدة من آياتها معجزة، وبمجموعها معجزة، وهذه الخاصية لا توجد في سائر السور.

رابعاً: الأساليب البلاغية في هذه السورة الكريمة:

انظر كيف نُظمت النظم الأنيق، ورُتبت الترتيب الرشيق، حيث قُدم منها ما يدفع الدعوى ويرفعها، وما يقطع الشبهة ويقلعها ألا وهي قول العاص بن وائل حيث قال: "إن محمداً قد انقطع نسله فهو أبتر"، ثُم لما يجب أن يكون عنه مسبباً، وعليه مترتّباً، ثُم ما هو تتمة الغرض من وقوع العدو في مغوّاته التي حفر، وصليه بحرِّ ناره التي سعر، ومن الشهادة على إلصاقه بالسليم عيبه، وتوريكه على البرئ ذنبه.

1. استعمال ضمير الجمع الدال على العظمة في قوله "إنا": ففيه تعظيم الواهب –سبحانه–، والإشعار بالامتنان بعطاء عظيم، وتشريف بذلك للموهوب له وهو النبي –ﷺ–.[20]
2. تصدير السورة بحرف التوكيد الجاري مجرى القسم "إن" وذلك لتحقيق الخبر الآتي والاهتمام به.[21] وقيل لرد استبعاد السامع الإعطاء لما أنه لم يعلّل، والمعطى في غاية الكثرة.
3. مجيء الفعل بصيغة الماضي الدالة على تحقق الوقوع وفي ذلك مزيد تأكيد وفيه دلالة على أن المتوقع من عطاء الكريم في حكم الواقع.[22]

وهذا فيه أنواع من الفوائد:

أولاً: أنه إشارة إلى تعظيم الإعطاء، وأنه أمرٌ مرعي لم يترك إلا أن يفعل بعد.

ثانياً: أنه إشارة إلى أن حكم الله بالإسعاد والإشقاء والإغناء والإفقار ليس أمراً محدثاً، بل هو حاصل في الأزل.

ثالثاً: أنه بشارة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، كأنه قيل: إنا هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في الوجود، فكيف نهمل أمرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية.

4. قوله: (أعطيناك) لم يقل أعطينا الرسول أو النبي أو العالم أو المطيع، لأنه لو قال ذلك لأشعر أن تلك العطية وقعت معللة بذلك الوصف فلما قال (أعطيناك) علم أن تلك العطية غير معللة بعلة أصلا بل هي محض الاختيار والمشيئة".[23]

ويدل على ذلك أيضا تقديمه الإعطاء على الأمر بالعبادة، فيدل ذلك كله على تشريف النبي -ﷺ- وأن الاختيار والعطاء إنما هو بمجرد الفضل والإحسان من الله –تعالى– من غير موجب، كأنه –تعالى– يقول: نحن ما اخترناك وما فضلناك لأجل طاعتك وإلا كان يجب ألّا نعطيك إلا بعد إقدامك على الطاعة، بل إنما اخترناك بمجرد الفضل والإحسان منا إليك من غير موجب.

5. إسناد الفعل إلى المبتدأ "إنا" وفي تبيين هذا يقول الرازي: "أنه بنى الفعل على المبتدأ وذلك يفيد التأكيد والدليل عليه أنه لما ذكرت الاسم المحدث عنه عرف العقل أنه يخبر عنه بأمر فيصير مشتاقا إلى معرفه أنه بماذا يخبر عنه، فإذا ذكر ذلك الخبر قبله قبول العاشق لمعشوقه، فيكون ذلك أبلغ في التحقيق ونفي الشبهة.

وذلك كقول الملك العظيم لمن يعده ويضمن له –ولله المثل الأعلى– :أنا أعطيك، أنا أكفيك وذلك لكون الموعود به عظيما –وهو الكوثر– فعظمه يورث الشك في الوفاء به، فكان إسناده إلى متكفل عظيم يزيل هذا الشك ويدحضه".[24]

6. حذف موصوف الكوثر وهو أبلغ في العموم لما فيه من عدم التعيين، وفرط الإيهام والشياع والتناول على طريق الاتساع.[25]

7. الإتيان بالصفة التي تدل على المبالغة "الكوثر" وهي كما سبق المفرط في الكثرة، وهي كما فسّرها ابن عباس الخير الكثير، ونقل الرازي في معناها خمسة عشر قولا[26] منها قول ابن عباس، وذكر القرطبي فيها ستة عشر قولا[27] منها ما يختلف مع ما عدده الرازي فيكون مجموعها ثلاثة وعشرين قولا، وقال صاحب البحر المحيط أن ابن النقيب ذكر في تفسيره ستة وعشرين قولا[28]، ولم أستطع الوقوف عليها، وكلها ترجع إلى معنى الخير الكثير كالنهر في الجنة، والحوض، وكثرة علماء الأمة، وكثرة الاتباع والأشياع، والنبوة، والمقام المحمود، والقرآن الكريم، والإسلام.

8. تعريف الكوثر بالألف واللام الدالة على كمال المسمى وتمامه، كقولك: زيد العالم، وزيد الشجاع، أي لا أعلم منه، ولا أشجع منه، وكذلك قوله: **إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ**[29] دل على أنه أعطاه الخير كله كاملاً موفراً.[30] في كل هذا التأكيد وهذه المبالغة تشريف للنبي –ﷺ– ولأمته بهذا العطاء الجزيل، وتسلية لقلب النبي –ﷺ– في ظل ما أصابه من أذى المشركين.

9. جاء التعبير القرآني بـــ **إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ**[31] ولم يأت بـــ "آتيناك" إشارة إلى أن المعطى وإن كان كثيراً في نفسه قليل بالنسبة إلى شأنه –عليه السلام– بناءً على أن الإيتاء لا يستعمل إلا في الشيء العظيم، كقوله –تعالى–: **وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ** [32]، وقوله: **وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ** [33]، والإعطاء يستعمل في القليل والكثير، كما قال الله –تعالى–: **وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ** [34]، ففيه من تعظيمه –عليه السلام– ما فيه.

قيل التعبير بذلك؛ لأنه بالتفضل أشبه بخلاف الإيتاء، فإنه قد يكون واجباً، ففيه إشارة إلى الدوام والتزايد أبداً؛ لأن التفضل نتيجة كرم الله –تعالى– الغير المتناهي.

10. أنه –تعالى– لما قال: "أعطيناك" قرن بقرينة دالة على أنه لا يسترجعها وذلك؛ لأن من مذهب أبي حنيفة –رحمه الله– أنه يجوز للأجنبي أن يسترجع موهوبه، فإن أخذ عوضاً وإن قلّ لم يجز له ذلك الرجوع؛ لأن من وهب شيئاً يساوي ألف دينار إنساناً، ثُم طلب منه مشطاً يساوي فلساً فأعطاه سقط حق الرجوع، فههنا لما قال "إنا أعطيناك الكوثر" طلب منه الصلاة والنحر، وفائدته إسقاط حق الرجوع ولله المثل الأعلى –سبحانه–.

11. أن قوله –تعالى-: **إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ**[35] يفيد أنه –تعالى– تكلم معه –صلى الله عليه وسلم– لا بواسطة، فهذا يقوم مقام قوله –تعالى-: **وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا** [36] بل هذا أشرف؛ لأن المولى إذا شافه عبده بالتزام التربية والإحسان كان ذلك أعلى مما إذا شافهه في غير هذا المعنى، بل يفيد قوة في القلب، ويزيل الجبن عن النفس.

12. ومن العلماء الذين حملوا الكوثر على كثرة الأتباع، أو على كثرة الأولاد وعدم انقطاع النسل، عندهم هذا إخبار عن الغيب، وقد وقع مطابقاً له فكان معجزاً.

13. استخدام الفاء في قوله: (فصل) التي تفيد التعقيب وعدم التراخي ففيه "التنبيه على أن شكر النعمة يجب على الفور لا على التراخي".[37]

14. الفاء التي تفيد السببية من جهتين: "أحدهما: جعل الأنعام الكثيرة سببا للقيام بشكر المنعم وعبادته،[38] والثاني: سببية ترك المبالاة كأنهم لما قالوا له إنك أبتر فقيل له كما أنعمنا عليك بهذه النعم الكثيرة، فاشتغل أنت بطاعتك ولا تبال بقولهم وهذيانهم".[39]

15. جاء التعبير القرآني بـــ "فصل" مع أن اللائق عند النعمة الشكر، فلم لم يأمره بالشكر؟

والجواب: أن الشكر عبارة عن التعظيم، وله ثلاثة أركان: أحدها: يتعلق بالقلب، وهو أن يعلم أن تلك النعمة منه لا من غيره، والثاني: باللسان، وهو أن يمدحه، والثالث: بالعمل، وهو أن يخدمه ويتواضع له. والصلاة مشتملة على هذه المعاني، وعلى ما هو أزيد منها، فالأمر بالصلاة أمر بالشكر وزيادة، فكان الأمر بالصلاة أحسن.

16. فن المذهب الكلامي، أو كما ذكره ابن النقيب باسم الاحتجاج النظري، "وهو أن يذكر المتكلم معنى يستدل عليه بضرب من المعقول"،[40] تستنتج فيه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة، ففي هاتين الآيتين مقدمتان ونتيجة، فلما كان الشكر على مقادير النعم، ولما أمر الله –تعالى– نبيه بشكر هذه النعمة بالصلاة التي هي قوام الأعمال البدنية، نحر الإبل التي هي سنام الأعمال المالية –وإنما خص الإبل لأنها أعز أموال العرب، وفيه إشارة إلى الانقطاع عن الدنيا ولذاتها–، دل ذلك أن عطية الكوثر تعدل جميع العطيات.[41]

وزعم ابن المعتز أن المذهب الكلامي لا يوجد في القرآن الكريم منه شيءٌ.

والصواب أنه قد ورد في النظم الكريم، بل إن القرآن مليء به، ومنه قوله –تعالى-: **أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ * لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ**[42].فالمراد بفساد السموات والأرض خروجها عن النظام الذي هما عليه، وقد استدل على

وحدانيته –تعالى– بعدم فساد السموات والأرض وبيان ذلك أن يقال: لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا، ولكنهما لم تفسدا، فليس فيهما آلهة إلا الله؛ إذ اللازم وهو الفساد باطلٌ، وهذا يقتضي أن يكون الملزوم وهو تعدد الآلهة باطل، فانتفى الثاني لانتفاء الأول.

17. التعريض بحال المشركين ممن كانت عبادته ونحره لغير الله –تعالى–، في قوله: (لربك)، أي مخلصا له في صلاتك وذبحك.[43]

والمراد من الصلاة مطلق الصلاة، والنحر مطلق النحر، وفيهما إشارة إلى نوعي العبادات، أعني العبادات البدنية والصلاة أعظمها، والعبادات المالية والنحر أجلّها.

18. وضع المظهر موضع المضمر: فلم يقل: فصل لنا وانحر، وإنما أظهر بلفظ الرب وهو نوع من الإطناب في الكلام، "ذلك أن صرف الكلام من المضمر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة، ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم: يأمرك أمير المؤمنين، وينهاك أمير المؤمنين[44] فأغنى هذا المعنى عن استعمال صيغة من صيغ الحصر، للدلالة على وجوب إفراد الله –عز وجل– بالصلاة والنسك".[45]

ولما في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته فضلا عن فرط إنعامه.

وهذا ما أشار إليه العلامة الزمخشري: "وعُلم بهذه الصفة أن من حق العبادة أن يخص بها العباد ربهم ومالكهم، ومن يتولى معايشهم ومهالكهم، وعرضت بخطأ من سفه نفسه ونقد قضية لُبه وعبد مربوباً وترك عبادة ربه".[46]

وأن وروده على طريق الالتفات من ضمير المتكلم في "إنا أعطيناك" إلى ضمير المخاطب في "لربك"، وهي من أمهات أبواب البلاغة، فلما أتى بضمير العظمة لتكثير العطاء فوقع الالتفات إلى صفة الإحسان المقتضي للترغيب.[47]

19. قوله "فصل لربك" أبلغ من فصل لله؛ لأن إضافة الرب إلى ضمير المخاطب يقصد به تشريف النبي –صلى الله عليه وسلم– وتقريبه.

وفيه تعريض بأنه يربيه ويرأف به.

كما أن فيه تأكيداً لترغيبه –عليه السلام– في أداء ما أُمر به على الوجه الأكمل.

20. إيجاز الحذف: حُذف اللام الأخرى لدلالة الأولى عليها، كما في قوله –تعالى–: **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ**[48] أي وأبصر بهم، فالتقدير: "وانحر له"،[49] وهو إيماء إلى إبطال نحر المشركين

قرباناً للأصنام. ومراعاة حق الفاصلة الذي هو من جُملة صنعة البديع، إذا ساقه قائله مطبوعاً، ولم يكن متكلفاً.

21. السورة مكية في أصح الأقوال، فالأمر بالنحر جار مجرى البشارة بحصول الدولة، وزوال الفقر والخوف، والإخبار عن الغيب، وقد وقع مطابقاً له، فكان معجزاً.

22. التوكيد الجاري مجرى القسم في قوله: **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ**[50]، وعبّر عن العاص بن وائل بالاسم الذي فيه دلالة على أنه لم يتوجه بقلبه إلى الصدق، ولم يقصد بلسانه الإفصاح عن الحق، بل نطق بالشنآن الذي هو قرين البغي والحسد، وعين البغضاء والحرد، ولذلك وسمه بما ينبئ عن الحقد.

23. الاستئناف الذي يفيد التعليل: فقوله: (إن شانئك...) استئناف معلل لقوله: (فصل...)، ففيه حث للنبي ودعوة له بالإقبال على الطاعة وعدم الاكتراث لأمر شانئه فهو الأبتر.

24. عدم ذكر اسم الشانئ: وإنما ذلك ليتناول كل من كان في مثل حاله،[51] وفيه تحقير له أيضا.

25. ترك التوجه له بالخطاب، وإنما ذكره بصيغة الغائب، فلم يقل: يا شانئ النبي أنت الأبتر أو ما شابهه، وفي ذلك امتهان له وتحقير لشأنه أيضا.

26. احتواء الآية الكريمة على أسلوب قصر وعلى ضمير غائب وعلى كلمة "الأبتر" يدل بأن المقصود بها ردٌ كلام صادر من معيّن، وحكاية لفظ مراد بالرد.

ضمير الفصل في **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ**[52] يفيد قصر صفة الأبتر على الموصوف هو شانئ النبي – صلى الله عليه وسلم– قصر المسند على المسند إليه، وهو قصر قلب، أي هو الأبتر لا أنت.[53]

والمراد من "الأبتر" في الآية الكريمة الذي لا خير فيه، وهو رد لقول العاص بن وائل أو غيره في حق النبي –صلى الله عليه وسلم–، فبهذا المعنى استقام وصف العاص أو غيره بالأبتر دون المعنى الذي عناه هو حيث لمز النبي –صلى الله عليه وسلم– بأنه أبتر، أي لا عَقِب له، فابنه عمرو الصحابي الجليل، وابنه عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابي الجليل ولعبد الله عَقِبٌ كثير.

27. وفيه ضرب من الأسلوب الحكيم: هو تلقي المخاطب بغير ما يترقبه بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أن الأحق غير ما عناه من كلامه كقوله –تعالى–: **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ**.[54]

وذلك بصرف مراد القائل عن "الأبتر" الذي هو عديم الابن الذكر إلى ما هو الأجدر بالاعتبار[55] وهو الذي لا حظّ له في الخير، أي لا ينقص المرء بأنه لا ولد له؛ لأن ذلك لا يعود على المرء بنقص في صفاته وخلائقه وعقله.

28. وفي الآية محسن الاستخدام التقديري؛ لأن سوق الإبطال بطريق القصر في قوله "هو الأبتر" نفي وصف الأبتر عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، لكن بمعنى غير المعنى الذي عناه شانئه فهو استخدام ينشأ من صيغة القصر بناء أن ليس الاستخدام منحصراً في استعمال الضمير في غير معنى معاده، على ما حققه العلامة سالم أبو حاجب وجعله وجهاً في واو العطف من قوله –تعالى–: **وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا**[56]؛ لأن العطف بمعنى إعادة العامل فكأنه قال: وجاء الملك وهو مجيء مغاير لمعنى مجيء الله –تعالى–.

29. الإتيان بالصفة على أفعل التفضيل بدلا من اسم المفعول:[57] فلم يأت التعبير القرآني بـــ "مبتور" ولكن جاء بـــ "أبتر"؛ ليدل على مبالغة استحقاق الموصوف لهذه الصفة.

قال شيخ الإسلام: "إنه –سبحانه– يبتر شانئ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من كل خير، فيبتر أهله وماله، فيخسر ذلك في الآخرة، ويبتر حياته في الدنيا، فلا ينتفع بها، ولا يتزود فيها صالحاً لمعاده، ويبتر قلبه فلا يعي الخير، ولا يؤهله لمعرفته –تعالى– ومحبته، والإيمان برسله –عليهم السلام–، ويبتر أعماله فلا يستعمله في طاعة، ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصراً ولا عوناً، ويبتره من جميع القُرُب فلا يذوق لها طعمٌ، ولا يجد لها حلاوة وإن باشرها بظاهره وطلبه شاردٌ عنها".[58]

30. الآية لا تشمل إلى أكابر الصحابة الذين كانوا يبغضون الرسول –صلى الله عليه وسلم– قبل الإيمان، ثم هداهم الله –تعالى– للإيمان، وذاقوا حلاوته، فكان –صلى الله عليه وسلم– أحب إليهم من أنفسهم وأعز عليهم من أرواحهم؛ لما أن الحكم على المشتق "شانئ" يفيد عليّة مأخذه، فيفيد الكلام أن الأبترية معلّلة بالبغض فتدور معه، وقد زال في أولئك الأكابر ؓ

واختار بعض العلماء في دفع ذلك حمل اسم الفاعل على الاستمرار، فهم لم يستمروا على البغض. والظاهر أنه انقطع نسل كل من كان مبغضاً له –عليه السلام– حقيقةً.

وقيل: انقطع حقيقة وحكماً؛ لأن من أسلم من نسل المبغضين انقطع انتفاع أبيه منه بالدعاء ونحوه؛ لأنه لا عصمة بين مسلم وكافر.

31. الاستعارة: في قوله: (الأبتر) كما سبق، فشبه الذكر الحسن والخير بالعقب.

32. الطباق: في (الكوثر) و(الأبتر) "لأن الكوثر الخير الكثير والأبتر المنقطع عن كل خير".[59]

33. إيجاز القصر: فعلى قصرها احتوت معاني جمة غزيرة، كما ذكرنا في تفسير الكوثر.
34. السجع : في خاتمة الآيات (الكوثر، انحر، الأبتر).[60]
35. عدم التصنع والتكلف: فـــ "مع كونها مشحونة بالنكت الجلائل، مكتنزة بالمحاسن غير القلائل" فهي "خالية من تصنع من يتناول التنكيت، وتعمل من يتعاطى بمحاجته التبكيت".[61]

من خلال كتابة هذا المقال توصلت إلى النتائج التالية:

1- سورة الكوثر مبدوءة بما يدفع الدعوى ويقلعها، ثم ذكر المسبب عنه، ثم تتمة الغرض من وقوع العدو في مغوّاته التي حفر، وصليه بحر تارة التي سعر.
2- في التعبير بالإعطاء دون الإتياء إشارة إلى أن المعطى وإن كان كثيراً في نفسه قليلاً بالنسبة إلى شأنه –صلى الله عليه وسلم–.
3- السورة تحتوي على عدة ألوان علم البديع، منها: المذهب الكلامي، أسلوب الحكيم، الاستخدام التقديري، الطباق، السجع.
4- سورة الكوثر تشتمل على ظواهر علم المعاني الآتية:

1- الذكر والحذف 2- اسلوب القصر
3- أسلوب التوكيد 4- االتفات
5- وضع المظهر موضع المضمر 6- الفصل والوصل 7- الإيجاز

5- المراد من الصلاة والنحر في الآية الثانية من السورة مطلق الصلاة والنحر، وبهما إشارة إلى عي العبادات: البدنية والمالية.
6- لكلمة "أبتر" معنيان: من لا عَقِب له، ومن لا خير فيه، والمراد منها في الآية الكريمة المفهوم الثاني وهو "لا خير فيه".
7- في الآية الأخيرة من السورة لم يذكر اسم الشانئ؛ يتناول كل من كان في مثل حاله.
8- المراد من "الكوثر" في السورة الكريمة الخير الكثير.

الحواشى

[1] – سورة الكوثر، الآية: 1.
[2] – سورة البلد، الآية: 1.
[3] – سورة التين، الآية: 1–4.

[4] – إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب، تحقيق: السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، بدون ذكر التاريخ، دار المعارف بمصر، ص 48.

[5] – جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، عام1415ه–1994م، مؤسسة الرسالة بيروت –لبنان، ج 24، ص 697–701.

[6] – أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، الطبعة الأولى، عام1411ه–1991م، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ص 494–495.

[7] – تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: خليل مامون شيحا، الطبعة الثالثة، عام1430ه–2009، دار المعرفة بيروت –لبنان، ج 4، ص 806.

[8] – صحيح البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الطبعة الأولى، عام1423ه–2002م، دار ابن كثير دمشق –بيروت، رقم الحديث 4966.

[9] – لسان العرب، ابن منظور، الطبعة الثانية، عام1412هـ–1992م، دار صادر بيروت –لبنان، ج 5، ص195.

[10] – معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، الطبعة الأولى، عام1422 هـ – 2001 م، دار إحياء التراث العربي، بيروت –لبنان، ج 3، ص 217.

[11] – العين، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دون رقم وسنة الطبع، ج 8، ص 117.

[12] – روح المعاني، محمود الألوسي، تصحيح محمد حسين العرب، بإشراف هيئة البحوث والدراسات في دار الفكر، دون رقم وسنة الطبع، ج 30، ص 247.

[13] – سورة الكوثر، الآية: 1.

[14] – مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين، الطبعة الثانية، عام1425ه–2004م، دار الكت العلمية، منشورات محمد علي بيضوي، بيروت –لبنان، ج 32، ص 117.

[15] – سورة الكوثر، الآية: 1.

[16] – تفسير الرازي، ج 32، ص 134.

[17] – سورة سبأ، الآية: 7–8.

[18] – سورة سبأ، الآية: 8.

[19] – سورة الكوثر، الآية: 1.

[20] – تفسير الرازي، ج 32، ص 121.

[21] – تفسير الرازي، ج 32، ص 122.

[22] – إعجاز سورة الكوثر، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: حامد الخفّاف، الطبعة الأولى، عام 1991م، دار البلاغة، بيروت –لبنان، ص 57.

[23] – تفسير الرازي، ج 32، ص 122.

[24] – تفسير الرازي، ج 32، ص 121–122، وإعجاز سورة الكوثر للزمخشري، ص 57.

[25] – إعجاز سورة الكوثر للزمخشري، ص 57، ودقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني المعروف بابن تيمية، الطبعة الثانية، عام1404ه–1984م، مؤسسة علوم القرآن، دمشق –بيروت، ج 5، ص 312.

[26] – تفسير الرازي، ج 32، ص س124–128.

[27] – الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق أحمد البردوني، بدون ذكر الطبع والتاريخ، دار الفكر، بيروت، ج 22، ص520–522.

[28] – البحر المحيط في التفسير، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان، طبعة جديدة، عام1412هـ –1992م، بعناية الشيخ زهير جعيد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج 10، ص 556.

[29] – سورة الكوثر، الآية: 1.

[30] – إعجاز سورة الكوثر للزمخشري، ص 57.

[31] – سورة الكوثر، الآية: 1.

[32] – سورة البقرة، الآية: 251.

[33] – سورة البلد، الآية: 1.

[34] – سورة النجم، الآية: 34.

[35] – سورة الكوثر، الآية: 1.

[36] – سورة النساء، الآية: 164.

[37] – تفسير الرازي، ج 32، ص 129.

[38] – مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن، محمد بن سليمان البلخي المقدسي الحنفي، (مطبوع باسم الفوائد المشوق لابن القيم)، الطبعة الأولى، عام1415ه–1995م، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص 254.

[39] – تفسير الرازي، ج 32، ص 131.

[40] – مقدمة تفسير ابن النقيب، ص 136.

[41] – إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص –سورية، بدون ذكر الطبع والتاريخ، ج 10، ص 598.

[42] – سورة الأنبياء، الآيتان: 21 و22.

[43] – مقدمة تفسير ابن النقيب، ص 254.

[44] – تفسير الرازي، ج 32، ص 129.

[45] – معارج التفكر ودقائق التدبر، عبد الرحمن حسن الميداني، الطبعة الأولى، عام1420ه–2000، دار القلم دمشق –بيروت، ج 1، ص 658.

[46]– إعجاز سورة الكوثر للزمخشري، ص 59.

[47] – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب الإسلامي بالقاهرة، بدون ذكر الطبع والتاريخ، ج 22، ص 290.

[48] – سورة مريم، الآية: 38.

[49] – إعجاز سورة الكوثر 58.

[50] – سورة الكوثر، الآية: 3.

[51] – مقدمة تفسير ابن النقيب، ص 254.

[52] – سورة الكوثر، الآية: 3.

[53] – التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الطبعة الأولى، بدون ذكر التاريخ، ج 30، ص 576.

[54] – سورة البقرة، الآية: 189 .

[55] – التحرير والتنوير، ج 30، ص 577.

[56] – سورة الفجر، الآية: 22 .

[57] – دقائق التفسير، ج 5، ص 314.

[58]– مجوع الفتاوى، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام المعروف بابن تيمية، طبعة منقحة ومصححة، عام1403ه–1983م، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ج 16، ص 526.

[59] – التفسير المنير، ج 15، ص 831.

[60] – إعجاز سورة الكوثر 58.

[61] – إعجاز سورة الكوثر 60.